مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(11)، العدد (1)، (جوان -2026)، ص 28-39
ISSN: 2602-5566 EISSN: 2716-8999

تحليل مفهوم الإرادة في فلسفة آرثر شوبنهاور

Analysis of the Concept of Will in Arthur Schopenhauer's Philosophy

الوشفون عبدالنور*[1]

[1] مخبر علوم التربية للإرشاد والتوجيه جامعة يحى فارس- المدية (الجزائر)،
elouchefoune.abdennour@univ-medea.dz

تاريخ الإرسال: 2025/02/28 **تاريخ القبول:2025/09/30**

ملخص:

لقد كان شوبنهاور ينظر إلى الإرادة كوسيلة لتحقيق مشروع خطاب التشاؤم من خلال بث الصفاء الروحي، والتكامل الذاتي بالزهد في الحياة الدنيا، لذلك امتازت فلسفته بالحيوية، لأنه أدخل فيها عنصر الإرادة، كما حاول إبراز الألم ومصدره في الوجود، وطريقة الخلاص منه، بالإضافة لقد أحدث شوبنهاور إنقلابا شاملا في تاريخ الفكر الحديث، حيث أدى تصوره للعقل على انه ذات الإرادة، فجعل من النزعة اللاعقلانية النزعة الإرادية أساس فلسفته ،حيث قام بنصب إرادة كلية عمياء، إرادة ذات رغبة غامضة، واندفاع لا مثيل له في الوجود، فالإرادة هي المصدر كل الشرور.

فشوبنهاور أكبر فيلسوف تغنى بالتشاؤم، وأبدع من وصف عن الألم الحياة وأعمق من نفذ إلى جوهرها إلا وهي إرادة الحياة، وإيجاد أخلاق صالحة لكل زمان ومكان، فالعالم بالنسبة إليه مملوء بالأوهام فهو شر، فالإرادة تدفع الإنسان إلى الملل والألم.

كلمات مفتاحية: إرادة؛ تشاؤم؛ ميتافيزيقا؛ شوبنهاور؛ النيرفانا.

Abstract

Enter Schopenhauer viewed the will as a means to achieve the project of a pessimistic discourse by promoting spiritual clarity and self-integration through asceticism in this worldly life. Therefore, his philosophy was characterized by vitality, as he introduced the element of will into it. He also sought to highlight pain and its source in existence, as well as the way to salvation from it. Furthermore, Schopenhauer brought about a comprehensive revolution in the history of modern thought, as his conception of the mind as a tool of the will made irrationalism and willpower the foundation of his philosophy. He established a blind, universal will— a will with a vague desire and an unparalleled drive in existence. The will, for Schopenhauer, is the source of all evils.

Keywords: Will; Pessimism; Metaphysics; Schopenhauer; Nirvana.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

مما لا شك فيه، أن فلسفة آرثر شوبنهاور (1788 – 1860) كانت رافضة للمثالية الكانطية التي تقول أن الميتافيزيقا هي معرفة الفعل الخالص، وعلى العكس من ذلك تماما فإن شوبنهاور في مستهل عرضه لهذا المفهوم يرى أن الميتافيزيقا التجريبية ممكنة، فالعالم يحمل في ذاته بذور تفسيره، وهذا الأخير ما هو إلا إرادة كلية التي مصدر كل الحقائق. وذهب إلى أبعد من ذلك، حيث تعد القوة الدافعة لكل الظواهر الطبيعية والإنسانية، ففي كتابه الذي ألفه سنة 1819 العالم إرادة وتمثل، حيث يقول: «إن جسمي عندما يشاهد من الخارج هو موضوع حسي، وهو أداة لتحقيق لرغباتي، وعندما اعرفه من الداخل فهو هدف للإرادة». فالعالم إذن هو وراء امتثال هو الإرادة كلية لا عقلانية، وبالتالي هل الإرادة هي الحقيقة المطلقة، ومصدر كل الحقائق الأخرى، وهي متعالية على السببية، لكل الموجودات، وهل في النسق الذي بسطه شوبنهاور في عمله الأساسي هل يمكن أن نعد الإرادة ذلك المبدأ الكوني الشامل لكل الكائنات، من أدنى أشكال الحياة إلى الوجود الإنساني الواعي، وهل الوعيُ يجعلها مظهرا خاصا هو إرادة الحياة، والعالم هو شر مملوء بالأوهام، والحياة حلم، والحلم نفسه ليس مرغوبا فيه، وبالتالي فإن الحياة اعتذار مؤجل باستمرار، إنها مسيرة نحو الموت، والحياة ما دامت حرة بكيفية مطلقة، فهي عمياء وتدفع الإنسان إلى الشؤم والملل، فالوضع الإنساني لهذا الوضع أليم، والحياة بالتالي بلهاء، والقيم الإنسانية هي عبثيات، وأما الحب هو حافز الحياة، وعليه فالحياة تزايد الألم في العالم كما سيتضح لنا في ثنايا هذا العمل.

وعلبه فإن بحثنا يهدف إلى استكشاف لمفهوم الإرادة وتحليلها في فلسفة شوبنهاور، والتركيز على الأبعاد الميتافيزيقية، وعلاقتها بالمعاناة، وجدل التحرر التي تفترضها التجربة الباطنية. وعليه فما هو تحليل الإرادة في فلسفة آرثر شوبنهاور؟

2- طبيعة الإرادة عند آرثر شوبنهاور:

الإرادة عند شوبنهاور هي كل جهد غريزي يحقق به كل كائن نموذج نوعه ويناضل الكائنات الأخرى للحفاظ على صورة الحياة التي توافرت لديه وهي غريزة أصيلة راسخة في الإنسان ومفروضة عليه بقوة قاهرة. (Shopenhauer A.، Le Monde comme volonté et représentaion، 1888، صفحة 68) (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 35)

فالإرادة هي المبدأ الأساسي والمحرك الأول والأخير لكل الكائنات الحية ومن بينها الإنسان. إنه لمن الواضح أن تحت كل عقل واع إرادة واعية أو لاواعية وهي قوة حيوية. كما أنها فاعلية تلقائية حيث نعتقد أن العقل هو الذي يحرك الإرادة أحيانا. إن الإرادة هي بمثابة الرجل الأعمى القوى الذي يحمل على كتفيه الرجل الأعرج المبصر. (ديورانت، 1985، صفحة 402)

فالإرادة عند شوبنهاور بمثابة العمود الفقري في الإنسان لأنها هي التي تحرك هذا الأخير، وبالتالي يصبح العقل أداة لها. (Shopenhauer A.، Le Monde comme volonté et représentaion، 1888، صفحة 50)

كما أنه قام بوضع الفلسفة والدين من أجل حجب رغابته من خلالها، وهنا يسمي شوبنهاور الإنسان بـ «**الحيوان الميتافيزيقي**» لأن الإنسان في هذه الحالة يسوق بإرادته لا بعقله.

يقول شوبنهاور في هذا المجال: «لا شيء أكثر إثارة وتهييجا للأعصاب عندما نحاول إقناع الإنسان عن طريق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، ونبذل جهودا للوصول إليه، إنه يفهم وسوف لن يفهم إلا إذا خاطبناه من خلال إثارة ما يريد ويرغب أي عن طريق إرادته» (ديورانت، 1985، الصفحات 401-402)

وهنا تظهر عدم صلاحية المنطق ولن يتمكن أحد من إقناع أحد بالمنطق، حتى علماء المنطق أنفسهم. بل استخدموه لكسب المال فقط لا غير، فلكي نقنع إنسان يجب أن نلجأ إلى إثارة مصلحته الشخصية، ورغباته وإرادته، والذاكرة خادمة الإرادة طبعا. (ديورانت، 1985، صفحة 401)

فالمنطق حسب شوبنهاور لا توجد أية فائدة منه، وبالتالي يمكن الاستغناء عنه، ولأنه أيضا لم يعد يخدم أغراض إنسانية بل نجد أن استعماله لأجل الأغراض الذاتية والشخصية.

إن العقل ينمو ويتطور لكنه دائما خاضعا للرغبة ووسيلة في يدها، ولما يحاول العقل أن يحل محل الإرادة فإن الاضطرابات تتبع هذه المحاولة، ولا يتعرض إلى الخطأ أكثر من الشخص الذي يحكم بعقله وفكره فقط. (Shopenhauer A.، Le Monde comme volonté et représentaion، 1888، صفحة 105)

كما جعل شوبنهاور من الإرادة العنصر المدرك في المعرفة المباشرة فهي الأساس والجزء الجوهري، أما العقل فهو الجزء الثانوي، وهو: «كالشمس لا يضيء العالم إلا بوجود جسم يعكس عليه الضوء. فبدون هذا الجسم لا وجود لهذا الإشعاع» (Shopenhauer A. , Le Monde comme volonté et représentaion, 1888, p. 14)فالجسم هنا هو الإرادة، فبدونها لا يمكن للشمس والتي هي العقل أن تضيء هذا العالم فهي إذا كالمرآة التي تعكس موضوعا مرئيا.

فالعقل جعلته الطبيعة في خدمة إرادة الفرد، ولهذا فالمقدار له هو أن يعرف الأشياء بمقدار ما تتيح الإرادة من دوافع لا ليتعمق وراء هذه الدوافع ويفهم حقيقة كيانها.

والإرادة هي العنصر الوحيد الدائم الذي لا يتغير في العقل، هي الإرادة التي عن طريق استمرار الفرد تعطي الوحدة للشعور وتجمع بين جميع أرائه، وأفكاره، وتؤلف بينهما في توافق مستمر. (معوض، 1965، صفحة 103)

ولقد كان شوبنهاور يؤكد على ثبات الإرادة في العقل، وإنها تلعب دورا كبيرا في إحداث التوازن في شخصية الإنسان، وكما يظهر فضلها خاصة في محاولة توفيقها بين أفكار البشر، فهنا يحلو لنا القول بأن للإرادة دورا فعالا وإيجابيا عند كل كائن حي.

إن الإرادة بالمعنى المشار إليه آنفا، فهي لدى الإنسان تكمن في أنه يعرف أن عملها وحركة الجسم ليسا شيئين مختلفين بالموضوعية، وعمل الجسم ليس إلا عمل الإرادة مجسدا، فالعقل يتعب أما الإرادة فلا تتعرض أبدا للتعب، ولهذا يقول شوبنهاور «أما الإرادة فلا تتعب ولا تشيخ، فهي عند الرضيع كما عند الشيخ دائما واحدة، طبيعتها غير متناهية وهي العنصر الأساسي والثابت» (Schopenhouer، 1986، صفحة 85)

كما نجد أيضا العقل يحتاج إلى النوم، أما الإرادة تعمل حتى في حالة النوم، ومن هنا كانت الحاجة إلى النوم عند المفكرين أقوى منها عند غيرهم.

فالإرادة إذا تعمل وفق لطبيعتها الأصلية الجوهرية، فلا يزعجها أي شيء من الخارج، وبالتالي هي جوهر الإنسان.

فالإرادة هي إرادة الحياة، إرادة البلوغ لحد أعلى من الحياة، كم هي غريزة هذه الحياة بالنسبة إلى جميع المخلوقات الحية، فالبذور الجافة تحتفظ بقوة الحياة الكاملة فيها إلى أن تصادفها المناسبة وتترعرع إلى نبات أخضر. (ديورانت، 1985، صفحة 402)

تشكل الإرادة عند شوبنهاور المقولة الميتافيزيقية الرئيسية في طرح مذهبه، وفي فلسفته الميتافيزيقية، وفي رأيه أن جوهر الوجود إرادة، أو قوة غير عاقلة، ويطلق عليها مرادفها في المعنى وهو الشيء في ذاته.

الإرادة باعتبارها الشيء في ذاته عند شوبنهاور فهي من ثمة تقع خارج الزمان والمكان والعلة وهي التي تصبح مقولة ذات كيان ميتافيزيقي. وباختصار تصبح الإرادة مقولة ميتافيزيقية تقع خارج نطاق التصورات، كما يطلق عليها كانط اسم المبادئ القبلية.

إن شيئا لا يرد، ومحتوى للظواهر لا يمكن إرجاعه إلى صورته ولا يمكن تفسيره من خلال شيء آخر وفقا للسبب الكافي. (حسن، 1993)

وليؤكد شوبنهاور على أن الإرادة هي الشيء في ذاته يقول: «إن الكثرة، والتنوع، والصراع، وكل ما يقع تحت أيدينا في عالم الظواهر، ما هو إلا حالة موضوعية للإرادة. أما الإرادة نفسها شيء في ذاتها لا يمكن أن تخضع للكثرة أو الاختلاف وأن تنوع المثل أو درجات التحقيق الموضوعي للإرادة فهو لا يمس الإرادة أو يتعلق بها وإنما يتعلق بالظواهر فالإرادة تتحقق في ظاهرة دون أن يمس جوهرها، فهي الشيء في ذاته ما عداها ظواهر». (حسن، 1993، صفحة 83)

إذن فالإرادة هي شيء في ذاته، تكمن وراء كل ما يبدو لنا من ظواهر، والإرادة في ذاتها ولذاتها تبقى هي وحدها ثابتة لا تفنى ولا تزول، حيث أنها ليست شيئا فيزيائيا، وإنما هي ميتافيزيقية، فهي

لا تنتمي إلى العالم المشاهد، وإنما إلى عالم الشيء في ذاته، هذه الأخيرة والكلية التي هي الشيء في ذاته موجودة بتمامها، وغير مجزأة في كل موضوع من موضوعات الطبيعة، في كل كائن حي. والواقع إن العالم يحل للإرادة التي موضعها ذاتها بدرجات متباينة، على الفلاسفة أن يكشفوا حقيقة هذا العالم المشاهد وان العالم هو من صنع عقولنا نحن.

كما أنه لا وجود له في الخارج، وهذا ما يدفعنا إلى القول بوجود عالم آخر هو عالم الأشياء في ذاتها وأن إرادة الحياة هي القوة المحركة للوجود [...] والعلة الأولى لكل الكائنات، ولتوضيح ذلك نأخذ على سبيل المثال ذلك التصوير الثنائي المزدوج للإنسان، فهو يندرج ضمن مظهرين، إما كجسم أو كإرادة، وفي هذا المعنى نجد شوبنهاور يقول:«...ومع أن الشيء في ذاته يوجد مستقلا عن الإدراك، ولا يمكن أن يخضع لأي من حواسنا، ومع ذلك فهو موجود في الحقيقة واقعيا، وهذا ما يطلق عليه اسم الإرادة» . (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 68)

ومن هنا نقول أن الفكرة الحاسمة من فلسفة شوبنهاور، هي طرحُ مفهوم "الإرادة" بطريقة مختلفة كلية عن المعنى السائد والمتداول لهذا المصطلح في التقليد الفلسفي السابق له. ولذلك، يلح فيلسوفنا على ضرورة ضبط هذا المفهوم منذ البداية، حتى لا ترد جملة من الشبه حوله فيما يأتي لاحقاً من تحليلات واستنتاجات. فبدون هذا البعد التوضيحي الأولي، يُحتمل أن تنقلب المفاهيم ومعانيها إلى أضدادها ويُفهم الصرح الفلسفي لشوبنهاور بشكل معكوس. فعلى خلاف النظرة التقليدية التي تربط "الإرادة" بالفعل الواعي الناجم من حيث الصدور عن كائن عاقل، يرى آرثر شوبنهاور أن الوعي ليس محايثا ولا ذاتيا للإرادة فلا يمكن البتة وصفها به على هذا النحو. بل هي، في نظره ، "لاواعية من حيث الجوهر، واعية بالعرض فقط." وهذا معناه أن الوعي لا يُكوّن طبيعة الإرادة، وإنما هو حالة عارضة، قد تحمل عليه وتطرأ فيه في حالات معينة، لكنها ليست محددة لماهية الإرادة في ذاتها. وبناء على هذا التصور ميز شوبنهاور بين ضربين من الإرادة: الإرادة العامة والإرادة المحددة بدوافع، فالأولى تمثل مبدأً كلياً لا يتسم ولا يتقيد بالوعي ولا بالعقل، في حين أن الثانية (أي الارادة المحددة بالدوافع) هي الإرادة الجزئية، المتعلقة بأهداف ومبررات، والتي تتجلى في ممارسة الإنسان العاقل في أفعاله العادية .

يقر شوبنهاور بصريح العبارة أنه استعمل لفظ "الإرادة" كحلّ اصطلاحي، أي بوصفه اسماً مأخوذاً من الجنس الأعلى الذي ينقدح في الذهن مباشرةً — أي الإرادة الإنسانية الواعية — لإطلاقه على ما يشكل، في نظره، جوهر قوى الطبيعة برمتها. وبتعبير أدق، ما كنا نتصوره قوى طبيعية متعددة — الجاذبية، الكهرباء، المغناطيسية، نمو النبات، نبضات الحياة — يُعاد صياغته وتأويله عند فيلسوف الإرادة باعتباره تنويعات متعددة لنمط واحد أصلي ألا وهو الإرادة. هذه التواشجات المختلفة من الفعل والحركة لم تكن تُجمع تحت مفهوم واحد قبل أن يصوغها شوبنهاور، بل كان يُنظر إليها كمجالات متغايرة وفي غاية التباين. ومن هنا تأتي أهمية إسهامه

الفلسفي في هذا المجال الدقيق: فلقد أعاد نظم وحدة الطبيعة في كنف مبدأ الإرادة. وقد يُطرح هنا سؤال منطقي: إذا كانت الإرادة عند فيلسوفنا تقارب مفهوم القوة، فلماذا لم يستخدم مصطلح "القوة" عوضا من مصطلح "الإرادة"؟ يرد شوبنهاور على هذا النوع من الاسئلة بأن العكس هو ما يجب أن يحدث: فعوضا من أن نَرُدَّ مفهوم الإرادة إلى القوة، علينا أن نَرُدُّ القوة إلى الإرادة. لكون "القوة"، في نظر شوبنهاور، مفهوم مستمد ومنتزع من العالم الظاهر، من الفينومين، ومن التمثلات الحسية للعالم الخارجي. إنها (أي القوة) جزء لا يتجزء من منظومة العلة والمعلول، وهي متصورة فقط ضمن نطاق الظواهر (الفينومين).

أما "الإرادة"، فهي التصور الوحيد الذي لا يُشتق من الظواهر، بل ينبع من خبرتنا الداخلية المباشرة. فالإرادة، بهذا المعنى، لا تمر عبر مصفاة الإدراك أو التصور، بل تُعاش بشكل حدسي مباشر (على نجور الانقداح الذي أشرنا اليه أعلاه فيما يخص التصورات الغير نظرية كالمبادئ)، بدون وساطة، بدون أي انفصال بين الذات والموضوع. إنها التجربة الفريدة التي يكون فيها "العالم الداخلي" حاضراً برمته، حيث يلتقي المُدرك بالمُدرَك في وحدة وجودية واحدة. وهذا هو ما يجعلها عند شوبنهاور المفتاح الأصيل لفهم وإدراك العالم، بخلاف مفهوم "القوة" الذي يظل مفهوماً مجرداً ومشتقاً (في نظره قابل للرد الى مقولة أعلى). وبناءً على ذلك، فإن جعل القوى الطبيعية قابلة للرد إلى مبدأ الإرادة ليس مجرد تعديل لغوي أو جدال لفظي، بل هو نقلة إبستمولوجية وأنطولوجية عميقة. فهو يستبدل تلك التفسيرات المادية التي تستند إلى العلاقات الخارجية بتأويل ميتافيزيقي يعيد كل مظاهر العالم إلى مبدأ داخلي واحد، يعايشه الإنسان من داخله: الإرادة. وإذا تجاهلنا هذا المعطى، وأعدنا دمج وربط الإرادة بالقوة كما جرت العادة، فإننا نفقد المنفذ الوحيد الذي يتيح لنا اختراق العالم كـ"شيء في ذاته"، لنظل أسرى الظواهر، عاجزين عن تجاوز حدود التمثيل. وهكذا، فإن فلسفة شوبنهاور تقدم رؤية موحدة للوجود، ترتكز على مفهوم الإرادة كجوهر كوني، لا كاختيار واعٍ، بل كمبدأ أصلي وأصيل أعمق من كل وعي، يحرّك كل كائن وكل شيء، من الحجر إلى الإنسان، من دون تمييز جوهري.

3- الإرادة وتحقيق الذات

عند دراستنا لتشاؤم الفيلسوف، نتساءل ونقول في أية درجة من الدرجات نضع شوبنهاور؟

يعد شوبنهاور فيلسوف التشاؤم الذي اكتشف أن الوجود في جوهره شر، وهذا الوجود هو إرادة، وهذه الإرادة هي مصدر الخطيئة ولتوضيح أكثر تشاؤمية شوبنهاور، هو استدلاله بقول كلدون الذي يقول «أكبر خطايا الإنسان ميلاده». (Shopenhauer A. , 1963, p. 147)

لما انبثقت الإرادة في الأعماق اللاشعورية على الحياة وجدت نفسها كفرد في عالم لا نهاية له، ولا حدود، وسط حشد من الأفراد المجهدين المتألمين، ولما كانت الإرادة دائمة، منافسة داخل حلم رهيب. فإنها تهرع دائما كي تدخل من جديد في لا شعورها الأصيل، وكان كل إشباع لشهوة ما

يخلق لدينا شهوة جديدة لأن الإنسان لا يعرف الإشباع وهذا باعتباره مجموعة من الغرائز، وبالتالي كلما حاول تلبية رغباته كلما ازدادت آلامه في الحياة. ولأنه أيضا كلما أراد إرضاء شهوة من شهواته ظهرت شهوة أخرى. فالحياة إذا عبارة عن شهوات متعاقبة. وأن الإنسان بطبعه يعمل كل ما بوسعه على تحمل أنواع الآلام والعذاب، محفوفا بالمتاعب والعراقيل.

إن هذا كله يوحي بان السعادة الدنيوية وهم وجب الاعتراف به، فالحياة بطبعها شر. وجوهر هذا الوجود الشقاء والسعادة في هذه الحالة نسبية والأجدر بنا أن نقول أننا نعيش لحظات الفرح ولا نعيش السعادة، والسعادة ما هي إلا خطة تصنعها لنا الحياة لتغوينا بالبقاء في الوجود. (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 36)

فهكذا كان نظر شوبنهاور إلى السعادة، حيث أن الإنسان لا يسعد في الدنيا بقدر ما يشقى ويتألم فيها.

إن نظرة شوبنهاور لإرادة الحياة هي كونها قدر الإنسان في الألم والعذاب وقد وجد الإنسان للمحافظة على حياته البائسة المستسلمة وبالتالي فالعالم شر وذلك ما تشهد به التجربة، ويشهد به النظر في ماهية الألم واللذة.

إن كون الألم انفعالي إيجابي فهو بذلك ترجمة عن حاجة مفيدة للحياة، واللذة إرضاء لهذه الحاجة وتلطيف مؤقت، وهي انفعال سلبي، إن بدت حالة إيجابية فتلك وسيلة من وسائل خداع الإرادة الكلية. لذا كانت انفعالات الألم أقوى في الغالب، نلاحظها عدم الألم. ولا نلاحظ الصحة والشباب والسلامة حتى تفوتنا، وانقطاع الشيء المعتاد يخلق ألام جديدة. وكلما دق الشعور إشتد الإحساس بالألم، وألم الإنسان أشد وأعظم من ألم الحيوان، كما إن الناس يتفاوتون في عدد آلامهم وقوة الشعور بها. كل هذا يدل على أن مبدأ السبب الكافي لا يصدق على الإرادة الكلية التي هي شيء في الذات.

أما إذا اعتبرنا أن العالم في الحقيقة إرادة، لا بد أن يكون مليئا بالآلام والعذاب، وذلك لأن الإرادة تعني الرغبة وهي دائما تصبو إلى المزيد حيث تنطوي وراءها جميع الرغبات التي تنتظر التحقيق مادامت الإرادة تطغى وتملأ شعورنا. وما إن توفر مناخا ضعيفا حتى تجمع الرغبات وأمالها وآلامها الدائمة ولهذا لن تبلغ السعادة والسلام أبدا.

والحياة شر لأنه كلما ارتقى النظام زاد الشقاء ونمو المعرفة ليس حلا، لأننا كلما ازددنا نجاحا، كلما ازددنا مللا لأنه عندما تصبح الإرادة أكثر كما لا يصبح الشقاء أكثر وأكثر ظهورا. (معوض، 1965، صفحة 117) وهذا يعني أن شقاء الإنسان يمشي وفق مقدار الناجحات التي يحققها في الحياة، بل وإنه كلما حقق مقدار كبير من المعارف كلما ازداد الشقاء، فالمعرفة والتقدم والتطور وغيرها، كلها تنتهي بنتيجة سلبية بصاحبها. فهنا يكمن مدى تشاؤم شوبنهاور من الحياة،

وهنا أيضاً ثمة سؤال يطرح نفسه وهو: إذا كان الإنسان يحس بالألم بنجاحه في عمل من الأعمال فبماذا يحس أثناء إخفاقه في الحياة؟

وفي هذا الصدد يضيف شوبنهاور: «إن الحياة الإنسان هي الأكثر ألما وشقاء لأنها يطغى عليها العذاب والملل». (Shopenhauer A.، 1963، صفحة 174)

كما أن إشباع العاطفة يؤدي في الغالب إلى الشقاء بدل من السعادة لأن حاجاتها كثيرا ما تتعارض ومصلحة صاحبها إلى أن ينتهي الأمر، والرغبة المشبعة تولد رغبة جديدة تزيد إشباعها، وهكذا دواليك إلى مالا نهاية، ومقدار الألم في كل فرد لا مفر منه تقرره طبيعته وهو مقدار يستحيل أن يظل فارغا ويتسع أكثر من عياره.

فإذا قمنا بالترويح على نفوسنا، هم كبير يضغط علينا، حل مكانه هم آخر فالحياة عبارة عن مجموعة من الشرور والآلام، وقد أصاب أرسطو (384-322 ق.م) لما قال: «إن الرجل الحكيم لا يبحث عن اللذة، ولكن عن التحرر من الألم والهم». (ديورانت، 1985، صفحة 416)

فالحكمة عند أرسطو لا تكمن عند الإنسان الذي تستهويه الحياة وتغريه الغرائز وإنما تحقيق الحكمة يكمن في تجاوز كل ما يعود بالضرر على الإنسان والإنسانية والتحرر من كل أشكال الألم والعذاب.

إن علة الشر إرادة الحياة، والشر شعور بالذاتية وتأكيد على مبدأ الفردانية والخضوع لوهم «المايا» بحيث يحس الإنسان بأنه يوجد هوةٌ بينه وبين الآخرين وهذه الهوة التي لا يمكن عبورها كما أن ذاته في مقابل من الذوات التي يظهرها عالم الظواهر المتعددة، وهو يجد في هذا الإحساس لذة لأنه طبيعي، يجد ذاته توكيدا لذاته واتساع لنفوذه، وتحقيق أكبر قدر ممكن من نوازعه الشهوانية فاللذة تختلف اختلافا واضحا عن الألم، ومن يدرك ماهية الوجود بأسرها يصبح خاليا من كل إرادة ومقدرة، ومن هذه اللحظة تدير الإرادة وجهها عن الوجود الذي أثارت ملذاته توكيدا للحياة.

فالإرادة الشوبنهاورية هي التي مكنته من كشف سر هذا الوجود ومعناه ولهذا يقول: «إذا كان العالم من تمثلي فهو أيضا إرادتي، ولما كانت هذه الأخيرة قوة عمياء وهي كل شيء، ولا يوجد شيئا غيرها أو خارجها، وبالتالي هي غاية نفسها، الإرادة لا يمكن أن تريد شيء آخر غير حياتها». (بدوي، شوبنهاور خلاصة الفكر الأوروبي، 1965، صفحة 287)

فإذا قلنا أن الإرادة (إرادة الحياة كان ذلك تحصيل حاصل، لأن كلمة الإرادة هي وحدها تتضمن هذا المعنى، والفرق بين الإرادة والحياة هو أن الإرادة جوهر الوجود وإرادته. أما الحياة فهي العالم المرئي والظاهرة، فهي التي تنظر فيها الإرادة إلى صورتها، والحياة بالنسبة إلى الإرادة رفيق دائم، فحيثما وجدت إرادة وجدت حياة وليست هذه الأخيرة مضادة للموت بل هي وحدها الثابتة التي تنفي لأنها ليست فيزيائية، وإنما ميتافيزيقية فهي لا تنتمي إلى عالم الظواهر.

فالإرادة الشوبنهاورية عمياء لأنها مبثوثة في كل الموجودات ولأنها أيضا ليست موجودة في الإنسان، بل تسكن خارج هذا الأخير فهي تسبح في كل هذا العالم. ولذلك كانت سببا رئيسيا في تعاسة الإنسان، لأنه ليس بإمكانه قيادتها، بل هو خاضع لها ومن أجل هذا اتخذ شوبنهاور مفهوما سلبيا للإرادة، حيث دعى إلى التخلص منها وقتلها وهذا باعتبارها المصدر الأول والأخير لجميع آلامنا.

لقد بالغ شوبنهاور، إذ أنه ذهب إلى القول بأن الإرادة هي أساس الواقع وجوهر الوجود. إن الإرادة الإنسانية هي مجرد كشف وإظهار لشموليتها، والإرادة حسبه ليست إلا قناع يخفي من ورائه الوجود، فالإرادة لا تخرج عن إرادة الحياة فقط. (حسن، 1993، صفحة 83) ولكن باعتبار أن الحياة عند شوبنهاور مليئة بالشرور والشقاء وغيرها من شتى أنواع العذاب. فهل من سبيل إلى الخلاص الإنساني؟

من المنطقي أن يدعو شوبنهاور في نهاية تشاؤميته إلى الانتحار كحلا للتخلص من الشقاء والآلام الدنيوية والملازمة له، إلا أننا نجده يقول عكس ذلك حيث يرى أن الانتحار هو تنازل أمام الإرادة فالانتحار ليس إلغاء الإرادة الحياة، بل بيان ببؤس، ويأس إرادة الحياة، ومنه أمكننا القول بأنه انسحاب من الحياة لا من إرادة الحياة وذلك لتعاسة لا نطاق أو سوء التكيف مع ظروف الحياة وهي نفس إرادة الحياة التي تسكن دافع الموت.

أما فعل الإرادة الحرة الوحيدة ذلك التحول السامي، فإنما هو إلغاء متع الحياة، ورغبات الجسم وهذا ليس انتحار الموت حبا للحياة أو مرورا بعتبات الموت شوقا للحياة، بل هو موت في الحياة، موت قصدي إرادي وتجاوز معايير الأخلاق ورصانة العقل، هو بذلك اعتناق من عالم الظواهر. (شيا، 1985، صفحة 180)

لقد ذهب شوبنهاور على العكس من ذلك تماما، أي أن الخلاص يشكل النهاية من ضغط قيود الإرادة، والمتمثلة أساسا في إماتة وإنكار إرادة الحياة، وقد أعطى انطباعا بأن كل إنسان ينبغي أن يكبح رغباته، ويمارس العزوبية، الوجود، متحررا بذلك من كل الرغبات ومن كل شيء ويرقى إلى حياة التأمل، فانه يقينا سيدخل إلى حياة سعيدة، ويعيش في نعيم الوجود، متحررا بذلك من كل الرغبات ومن كل شيء، وهذا ما تعنيه البوذية بمصطلح النيرفانا .وهو تعريف يبدو ممكنا كما يعنيه شوبنهاور إنكار إرادة الحياة .فلكي نتخلص من الألم والشرور الموجودة في هذه الحياة يقدم لنا شوبنهاور طريقتين في ذلك:

فالأولى تكون بطريقة فنية جمالية وهي مؤقتة وفيها يلجأ الإنسان إلى بناء عالما آخر من الجمال يسود فيه التفاؤل والأحلام، ويتم ذلك بابتكار عوامل فنية إبداعية كالموسيقى، الرسم والمسرح وغيرها من الفنون التي تجعل الإنسان في أتم الراحة النفسية والجسدية وفي هذا المجال يقول شوبنهاور: «فالفن... مسكن مؤقت لنزعات الإرادة، فهو لا يتخلص من الحياة مؤقتا ولكنه

يتخلص من آلامها وذلك في لحظات قصيرة معدودة». (Shopenhauer A. , Le Monde comme volonté et représentaion, 1888, p. 326)

والثانية تكون بطريقة أخلاقية والتي تتم بالنيرفانا، والزهد والتقشف والتسامي عن الحياة والارتفاع عن عالم الألم فالزهد يرتفع حتى التنازل الإرادي وحتى الطهارة المطلقة وحتى الإنكار التام لإرادة الحياة... الزهد هو التحرر النهائي، يجلب السلام الدائم، يوفق بين زهاد كل ديانة وزاهد كل عصر. (Shopenhauer A. , pensés et fragements, 1892, p. 167)وتبعا لكل هذا يستطيع الإنسان أن يخلق عالما موازيا أخلاقيا للألم.

لا يصل إلى الراحة التامة إلا الذين ينكرون إرادة الحياة أولئك هم الزهاد والقدسين، الذين يفهمون على أنه إنكار الذات أي محو لمعالمها، والإنسان الحق أو الأخلاقي المثل الذي يتحرر من كل علائق البدن يحيا حياة العبيد الذين ينغمسون في جاهلية الخرافة والشهوة والغريزة.

أما الإنسان الحر فهو الذي استطاع أن يتحرر من شهواته وجدد نفسه عن الهوى، وبالجملة تحرر من إرادة الحياة فأصبح حرا طليقا من كل قيد. والزهاد والقديسين هم وحدهم الذين يتحررون من كل الضرورات ورسائل الحب الإلهي بانتقالهم إلى درجات المعرفة الكاملة عن طريق الحدس. (حسن، 1993، صفحة 163)

كما أن النيرفانا التي سبق لنا ذكرها تدعو إلى تطهير البدن من الشر بقهر الرغبات والأهواء والتحلي بالفضائل الخلقية عن طريق الابتعاد من الحياة وعدم الانغماس في متاهات والاكتفاء بالضروريات حتى تتحقق درجة من التطهير الفكري، وبعد التشكيل يصل الإنسان إلى حالة من الراحة النفسية.

إن الحياة التي يصفها شوبنهاور هي حياة القديس وفي مثل هذه الحالة ينتصر هذا الأخير على إرادة الحياة، ويهزمها في نفسه وفي جسمه وعلى حد سواء. وهذه الحياة هي التي يسودها السلام الأبدي والسعادة الدائمة. إنه من المؤكد أن شوبنهاور متأثر أشد التأثير بالتعاليم التي كانت سائدة في البوذية الهندية والتي ترى بأن الشر هو الألم في جميع أشكاله ومظاهره. (بدوي، شوبنهاور خلاصة الفكر الأوروبي، 1965، صفحة 108) كما أن الألم يصدر عن الشهوة والبلسم الشافي من الألم هو القضاء على الشهوة وهذه الأخيرة التي هي الغرور الأعمى الذي أكدته الميتافيزيقا البوذية.

وبهذه الطريقة يصل الإنسان إلى الزهد الإرادي والطمأنينة الكاملة، والخلاص المطلق من كل إرادة، وفي هذه الحالة ينكر الإنسان ذاته بدلا من أن يقتصر على حب الآخرين، فيرى في إرادة الحياة ممثلة في شخصه خصما لدودا يجب التخلص منه، ويعرف عن الطبيعة كلها فلا يتعلق بأي مظهر، ما لأن هذا الفعل يعتبر تغير عن إرادة الحياة ويميت في نفسه كل رغبة جنسية لأن فيها استمرار للإرادة الحياة ومن هنا كانت الظاهرة الجنسية المطلقة أول درجة من درجات المنحرفين على إرادة الحياة.

فلا يهتز لشيء ولا يقلق من أي حادث بل يتألم في إخضاعه وهدوء كل هذه الخيالات الدنيوية التي تتراءى وهما أمام عينه وقد كانت من قبل تهزه وتثير كيانه، لأن هذا الوجود هو عدم. (بدوي، شوبنهاور خلاصة الفكر الأوروبي، 1965، صفحة 290)

إن فلسفة شوبنهاور هروب من الحياة وآلامها وشرورها، فالرجل الحكيم لديه هو الذي لا يتشبث بالحياة، فمشهد الحياة يفزعه، ولهذا فلسفته هي انسحاب من الحياة وهزيمة نكراء. ومن هنا فشوبنهاور ينعت الإرادة بأقبح النعوت، كما أنه يربط الرغبة بالشقاء طالما لم تصل إلى سد هذا النقص أو إشباع هذه الرغبة، بحيث أن كل إشباع للرغبة ما هو إلا بداية لرغبات أخرى. وهذا معناه أن الإنسان كلما فقد إلى أعماق الوجود وجد أن ماهيته الأصلية هي الشقاء، ورأي أن الوجود عنده ما هو إلا سقوط مستمر في الموت.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو: من أين يستمد الإنسان الحرية التي يستطيع التغلب بها على الإرادة في نفسه طبقا لمذهب شوبنهاور؟ إن الشيء الذي يستمد منه الفيلسوف حريته هو الإرادة حيث يقول: «والإنسان الأسمى هو الإنسان الذي يتمتع بالحرية، والذي يستطيع أن يشارك في عالم الشيء في ذاته، أي في عالم الإرادة» (Shopenhauer A.، Le Monde comme et représentaion volonté، 1888، صفحة §2).

4- خاتمة:

مما سبق نستنتج وفق هذا التحليل الذي قدمناه أنَّ الإرادة والتشاؤم يشكلان جوهر الفلسفة الشوبنهاورية، حيث يرى شوبنهاور أن الإرادة العمياء قوة لا عقلانية تسعى دائما لتحقيق ذاتها دون غاية نهائية، فهي مجموعة من الرغبات التي تؤدي إلى المعاناة المستمرة التي هي عبارة عن معركة دائمة بين الرغبة والإحباط، فشوبنهاور يتبنى نظرة تشاؤمية للعالم، حيث يعتبر أن الحياة في جوهرها معاناة. والسعادة ما هي سوى غياب مؤقت للألم. فالحياة في نظر شوبنهاور عقاب، وللخروج من هذا الألم يجب التخلص من مرارة الحياة، وهي المرتبة الأولى من هذا التحرر.

فإننا بهذا نخلص إلى أن التحرر _من وجهة نظر شوبنهاور الذي بسطناه في ثنايا هذا التقصي المفهومي_ هو الذي يساعدنا على الدخول في عالم التأمل الخالص، فيجب على الإنسان في نظر شوبنهاور أن يصل إلى ذلك بواسطة حالة الانكسار الكلي، لكن إرادة الحياة، وخاصة باللجوء إلى ما تدعو إليه البوذية في مبدئها الخالص –النيرفانا- وهي في نظر شوبنهاور ليست هي العدم، وليست انتحار ميتافيزيقي ولكنها للامتثال. فتشاؤمية شوبنهاور تشاؤمية ميتافيزيقية.

وفي الأخير يتضح لنا أن فلسفة شوبنهاور لها رؤية مزدوجة، فمن ناحية يؤكد أن العالم الذي نراه ونختبره ليس سوى تمثل أو صورة ذهنية، ومن ناحية أخرى أن الحقيقة الجوهرية خلف هذا التمثل ليست مادة أو عقلا، بل إرادة عمياء، قوة لاواعية تحكم كل شيء في الكون.

قائمة المراجع

أولا الماجع باللغة العربية

1. شيا ,م .(1985) .*النظريات الجمالية)كانط، هيقل، شوبنهاور* .(éd. 1))بيروت :دار الثقافة.
2. بدوي ,ع .(1984) .*الموسوعة الفلسفية* .(éd. 1)المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
3. بدوي ,ع .(1965) .*شوبن‌هاور خلاصة الفكر الأوروبي* .(éd. 3)دار النهظة العربية.
4. حسن ,ش .(1993) .*فكرة لإرادة عند شوبنهاور في الطبيعة والمعرفو والأخلاق* .(éd. 1)بيروت :دار الثقافة.
5. ديورانت ,و .(1985) .*قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي*) .(éd. 5)ف .المشعشع (.Trad , بيروت :مكتبة المعارف.
6. كامل ,ف .(1991) .*الفرد في فلسفة شوبنهاور*.مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
7. معوض ,أ .(1965) .*أضواء على شوبنهاور* .(éd. 3, Vol. 2)دار الهنا للطباعة.

ثانيا المراجع باللغة الاجنبية

1. Schopenhouer, A. (1986). *la volonté dans la nature* (éd. 2). (é. sans, Trad.) P.U.F.
2. Shopenhauer, A. (1888). *Le Monde comme volonté et représentaion* (éd. 7). (A. Burdeau, Trad.) paris.
3. Shopenhauer, A. (1963). *le vouloir vivre; l'art et la sagesse* (éd. 2). paris: P.U.F.
4. Shopenhauer, A. (1892). *pensés et fragements.* (p. trotugnon, Éd., & j. bondeau, Trad.) paris.